يعقوب الخليل

قصة قصيرة

على وجهه رسمت الايام تجاعيداً كأنها خارطة الوطن ,ترى فيها رحلة طويلة من الالم وقسوة الأيام, وكأن الدنيا تركت له تجعيدة مع كل عثرة وكل كرب مر به على مدار سنينه السبعين.

تلمح بعينيه دمعاً صامتاً قاوم النزول لأعوام خلت, اما ابتسامته فتظهر على استحياء, ويخفيها شاربه الذي اكتسى باللون الاصفر لكثرة ما نفث في الهواء من عباب السجائر العربية التي اعتادها منذ صغره.

اقتربت منه دون أن يلحظ قدومي اليه, وأنهيت شروده الذي استمر فترة من الزمن, وعلى الفور, عدل من جلسته ورمقني بنظرة ودودة, ونصف ابتسامة جادت بها شفاهه التي ربما نسيت التبسم لأعوام.

جلست بجانبه واحترمت حالة الصمت التي سكنته وسكنها, ليبدأ هو بالحديث وكأنه اشتاق لمن يستمع إليه دون أن يتهمه بالخرف.

-" ستة وعشرون عاماً يا ولدي قد مضت بحلوها الزهيد ومرها السائد، مضت وكل عام كان يترك على هذا الجسد علامة تثبت جبروت الايام وقسوة السنين، ورغم هذا الجبروت ستة وعشرون عاماً لم تكن كافية ولم تكن قادرة على ازالة ذلك المشهد من الذاكرة"

بهذه الكلمات بدأ الحاج عارف أو يعقوب الخليل كما يسميه أهل القرية حديثه، ليختلط صوته بخنقة في العبرات اجبرت كبرياء عينه ان يتنازل، ويسمح لدمعة أن تفر من قيود أجفانه المثقلة بالألم، وأباح قلبه لحشرجة تخفف عنه ما حمل على مدار سنين عمره الطوال.

صمت قليلاً ليستجمع قواه ...

-لقد كان قرة عيني وأجمل عطايا السماء لي, لازلت اذكر ضحكاته التي بثت الحياة في منزلي الصغير بعد عشرة أعوام من الجدب والقحط واستجداء معطي العطايا , كان لي ولداً وصديقاً وأخاً ,لو سألتني عن سعادتي قلت في رؤياه سعيداً مبتسماً , وكأنه زهر البنفسج والياسمين, وعطر زهرة الليمون تجتاح صميم الاحساس فتعيد اليه الهدوء, لقد كنت اراقبه يكبر يوماً بعد يوم أنتظر ثمار غرسي الوحيد , أرعاه بكل كياني مع تلك الصابرة التي أصابها ما أصاب يعقوب على ولده, غير أن يوسفها لم يعد لكي يلقي عليها قميصه فيرتد لها بصرها كيوسفه.

غفى يوسفي على حجرها مساءاً، يحلم بغده ويرسم خطوط مستقبله، في الحقيقة لقد كان حلمه يكبره بأعوام كثيرة

غفى المدلل فغفوت مع غفوته، فقد كان يبدأ يومي برؤيته وينتهي بابتسامته.

وكان نداء الله أكبر إيذاناً بالفجر الأخير، دون أن أتنبه أنها المرة الاخر التي يرافقني فيها لصلاته المفضلة،

كان هذا في أواخر شباط في الخامس والعشرين منه تحديداً، من العام ألف وتسعمائة وأربعة وتسعين، في اليوم الذي استندت على كتفه للمرة الاخيرة في طريقنا للحرم الابراهيمي في الخليل.

دخل المسجد بوقاره المعتاد، الذي لا يعرفه أبناء سنه ولا بعض من يكبرونه بأعوام، استقبل قبلته وكبر

وليست سوى دقائق حتى ارتمى في أحضاني وقد اخترقت رصاصات صهيوني قذر جسده بأكثر من خمس رصاصات.

عادت خنقة العبرات لتتملك صوته السبعيني، وعاود كبرياء عينه بالتنازل، هذه المرة تاركاً نهراً من الدموع تنهال على تلك اللحية البيضاء، وقتها كنت تحت تأثير المشهد وكأنني اشاهده تماماً، ولم أجد حيلة لمواساة يعقوب الخليل سوى بهدهدة على الكتف، وكأساً من الماء عله يحدث ما أحدثته رؤيا يوسف بيعقوب فعلم منها مالا يعلمون.

رشف الحاج عارف من كأس الماء رشفة واحدة، ليعاود الحديث مرة أخرى وكأنه يصارع الزمن ويؤرخ الاحداث من قبل الرحيل، أو لعله لم يعد يمتلك من طاقة التحمل ما يسعفه للصبر وكتمان الالم وقتاً أطول، فيحاول جاهداً أن يقذف هذا الالم الى مسامع غيره، عسى أن يركن قلبه للراحة ولو قليلاً، أو لعله يحاول ايقاف الزمن عند لحظة من حياته ويأبى أن يغادرها، وربما يحاول اجبار ذاكرته على المحافظة على صورة التقطها وخزنها لأعوام طوال.

-أصيب ولدي والحقيقة أن وريدي هو النازف ودمي ما خضب الارض لا دماه، قتلت أنا وولدي هو من سرى لربه ذاكراً، كان لون الدماء قد كسى ثيابه بالكامل، وتلطخ وجهه الندي بلون الدم، واكتوى قلبي بجمرة الرعب عليه والخوف.

وضعت رأسه على فخذي أحاول إبراءه، وضعت يداً على جروحه علها توقف نزيف وريده ونزيف قلبي، ويد تمسح وجهه الطاهر، كانت نظراته شاخصة اليّ، ينظر والبسمة لم تفارق محياه، ارتعد جسده بنفضات خفيفة عليه قاسية علي، في الحقيقة لقد كانت إيذاناً بالرحيل.

كان المشهد مكرراً في أرجاء الحرم بشكل هستيري وجنوني، في كل ركن ترى مصاباً يئن وعلى رأسه من يعالجه، أو جثة هامدة وحولها الباكون، ومن بعيد ذلك القذر الذي أمطرهم بالرصاص لم يفرغ كل حقده بعد

موجة من القهر والحزن والانهيار تخللت جسدي في أعد أعي ما يدور غير أني أشاهد عياناً تيبس شجيرتي التي نذرت كل حياتي لأجلها، فشلت يا ولدي ....

فشلت في حمايته، فشلت في تلقي الموت عنه وفداؤه بهذا الجسد وهذه الروح، كنت مدركاً انهم حرموني لمسه الى الابد، وأيقنت أن شمس أيامي لن يعاودها الشروق، والان عليّ أن أدفن فرحتي وسعادتي وطفلي المدلل وتسليمهم للتراب، اليوم يتوقف الزمن ويتوقف معه كل شيءٍ عدى الحزن والالم ولوعة الفراق، بقي ولدي عند عمر الحادية عشر، وتوقف عمري عندها تماماً، فلا أذكر حياة قبله، ولا اذكر حياة بعده، تساوينا في العمر غير أني ولدت قبله بكثير، ومت بعده ألاف المرات وبعثت على الالم من جديد.

فجأة قام الحاج عارف عن كرسيه الخشبي في دار المسنيين، يدفع نفسه للسير متحاملاً على وجعه وانهياره إلى داخل غرفته، ليخرج بعدها بقليل حاملاً ورقة وقد ضمها على صدره، جلس في مقعده تماماً في الوقت الذي لم أستطع فيه أن أتململ في مقعدي حتى.

مد الي تلك الورقة، نظرت اليها ودون انتظار منه لسؤالي أجاب: نعم هو ولدي الذي جبر الله خاطري به فأسميته جبر وابتلاني الله بفقدانه فأسموني يعقوب الخليل لكثرة ما زففته بالدموع.

وضعت حقنة المهدئ الى جانبي، ترى هل تجدي هذه الحقنة مع هذا الالم وهذا الحزن؟

في داخلي كانت الاجابة واضحة جلية بأن هذا الشيخ لن تجدي مواساته بمثل هذه العلاجات، ورغم ذلك كان حتماً عليّ ان امنحه ولو جزءاً يسيراً من الوقت دون نبش للذكريات.

ربما علم الرجل ما جال بخاطري، فمد لي يده كاشفاً عن ساعده الذي تلقى مئات الحقن في العامين الماضيين، ومنذ ان فارقت زوجته الحياة وبقي وحيداً فجيء به الى دار المسنين، وكمئات المرات السابقة حقنته بالمهدئ وكالمرات السابقة ذهبت أدراج الرياح، هممت بالمغادرة وجمعت أشيائي ومضيت وبقي يعقوب الخليل متمدداً على ذلك المقعد الخشبي يحضن صورة يوسفه منتظراً ذلك اللقاء الذي سيجمعهم معاً وبقيت أنا ألعن كياناً يغتال أحلام الرجال.